تقديم

لا أعتبر كلماتي هذه غير الكلمات، ولا مقالاتي التي أنشرها بشكل دوري في بعض الصحف العربية - الإلكترونية منها أو العادية - ذات صفة خاصة، تُميزها عن غيرها من المقالات التي يكتبها الكثير من الكتاب العرب عامة، والفلسطينيين منهم خاصة.. بل أجد الكثير من مقالاتهم رسائل مهمة، وتجسيد واقعي للأمة العربية وحالها وقضياها الكبيرة والمعقدة.. لكن اعتبر مقالاتي - وهذا ما ألمسه من خلال التعليقات والنقاش الذي اقرأ معظمه أو أسمعه من الأصدقاء والمعارف - هو ما تتطرقه هذه المقالات من قضايا أعتبرها ويعتبرها قرّائي قضايا مصيرية وحساسة في نفس الوقت.. طرقتُ أبوابًا كثيرة كانت دائمًا موصدة تحتاج لمن يحاول فتحها أو طرقها على الأقل، فتفتح فرصًا للنقاش والحوار لهذه القضايا والأمور التي تمس البسيط قبل الإنسان المهم، وتلامس أمورًا أو قضايا يواجهها الإنسان العربي والفلسطيني بشكل خاص..

كل هذه الأمور والقضايا كان لي على الأقل رأي، إن لم يكن اقتراح بشأنها؛ اقتراح لحل عقدها أو يفتح مجالاً للحوار وللبحث عن حلٍ لها، وهذا ما يكفيني ويسعدني أن أقدمه..

وها أنا أقدِمُ على نشر بعض هذه المقالات في كتاب بعنوان "من سرق منا غزة؟" ومن خلال الناشر "مؤسسة شمس للنشر والإعلام"، لعل الحوار يتسع والفائدة تعم وتشمل مواقع أكثر..

أنس أبو سعده

allpalest@hotmail.com

كفّة القبّان

قبل عدة سنوات فقط، لم يكن من الطبيعي أن لا تكون مؤطرًا أو منتميًا إلى فصيل فلسطيني.. ولم يكن عاديًا ألا تدافع وبقوة عن انتخاب قائمة هذا الفصيل أو ذاك.. مع تفصيل - أحيانًا ممل - لمبادئه وشعارته وخطوط برنامجه إن تحقق نجاحه.. كان الاستقطاب واضح، والفرز واجب.. والحماس مطلوب..

كان المعظم يقول ولو بقرارة نفسه، هذه الانتخابات التي ستجرى، هي إحدى نتائج وتبعات اتفاقية أوسلو المشؤومة، لكن لا بأس، ما دامت هذه الانتخابات ستكون نزيهة وحرة.. وما دام سينتُج عنها أول عناصر السيادة، وهو المجلس التشريعي، الآداة الوحيدة للتشريع.. وحصلت الانتخابات ولأكثر من دورة، وعلى نفس أسس أوسلو سالفة الذكر أيضًا.. وفي كل مرة، شهد الجميع بشفافية هذه الانتخابات ونتائجها، مهما كانت طبيعتها والفائز بها.. وتتابعت حكومات وطنية، مرة ببعض ألوان الطيف الفلسطيني، ومرات بمعظمها..

لم يكن برنامج أي حكومة من هذه الحكومات ولو كانت بطيف واحد، متناقضًا بشكل كبير مع برنامج الحكومة التي سبقتها أو التي لحقت بها.. كان دائمًا برنامجًا وطنيًا، يؤكد في معظمه على الثوابت الوطنية، بالرغم من أنه لم يكن من الضروري التأكيد عليها باعتبارها من

المُسلَّمات الطبيعية حتى عند أبسط إنسان فلسطيني أو عربي.. ولو أجرينا مقاربة بسيطة لبرامج حكوماتنا المتعاقبة مع أي برنامج لحكومات الاحتلال، وبأي حزب مهما كان تعصبه أو حجمه، لوجدنا أن برامجهم السياسية تبتعد عن المُسلَّمات التي يؤمنون بها، وإنما تُركِز أكثر على العموميات، والأمور الخدماتية للمواطنين.. فلم نجدهم مثلاً يركزون على الالتزام أو عدم الالتزام بالاتفاقيات المبرمة أو بالتعهدات الملزمة..

وهنا يأتي السؤال الكبير: لماذا يُطلب منا، ونحن تحت الاحتلال أن يكون الالتزام بما سبق من اتفاقيات موقعة؛ واضحًا في أي برنامج حكومي؟ ولماذا يُسمح لوزير في أي حكومة جديدة لهم، وفي تصريح صحفي بسيط أن يلغي أهم اتفاق أو التزام بكلمتين اثنتين؟ والحجة المتوفرة دائمًا بأنه وزير جديد! لماذا نحاصر نحن أنفسنا بأنفسنا، ونترك للمحتل الحبل على الغارب؟

المتابع لمزاج الشارع الفلسطيني هذه الأيام كما أنا، يلاحظ وبدون أدنى شك، نفور الإنسان الفلسطيني من كلمة سياسة أو أحزاب أو فصائل.. وهو الإنسان الذي كانت معظم مشاكله في بيته هو إصراره وتعلقه بمتابعة الأخبار السياسية على مدار الساعة! وهو الأكثر نقاشًا للأمور السياسية بين أقرانه العرب.. والآن بدأ ينفر من سماع أي شئ يتعلق بإنجازات من يحكم هنا أو يحكم هناك! ولم يعد يفهم وبالرغم من توافقنا سابقًا ولأكثر من مرة على برنامجنا لحكومة فلسطينية سببًا للخلاف على هذا البرنامج، الآن إذًا يؤمن وهو يتكلم بحسرة، بأن المهم ليس أن تحكم، أو تُحقق ما تؤمن به من مبادئ أو أفكار..

وليس أيضًا أن تتحول كوزير أو حكومة إلى موظف نشيط في مصلحة المياه أو الكهرباء أو الطرق.. فالفلسطيني ضحى وقاتلَ، لا ليستطيع أن يعبر بين مدينة وأخرى بحاجز أو حاجزين أقل من الماضي، ولا أن تبنى مدرسة لأبنائه هنا أو هناك.. ولا لإنشاء مصنع قرب منزله أو في قريته.. وإلا لتحمس لِما يطرحه نيتنياهو من سلام اقتصادي وحسب، بعيدًا عن السلام العادل والشامل، بينما الأرض الفلسطينية تُقضم بدون حساب.. ومظاهر سيادتنا الوطنية إلى زوال..

الواضح والجلي أن انقسامنا وعدم التقائنا عند نقطة تتوسط ساحتنا الفلسطينية، والذي لا يوقف جرف انزلاقنا إلى ما لا نهاية.. سببه ليس فقط هو برنامج الحكومة، ولا الشقاق لما حدث في غزة، الحقيقة أننا جميعًا أصبحنا لا نرى في المرآة إلا وجوهنا، فنُعجب بها.. وإذا سمعنا شيئًا، فلا نستمع إلا لصدى صوتنا..

استطاعت طيور الظلام أن تصور لنا بأننا صرنا حُكامًا على ممالك وشعوب، نأمر فنُطاع.. ونَنهى فنُجاب! نسينا أننا في سجن واحد كبير، مفتاحه مع الغراب! والغراب طار إلى مدائن بعيدة.. والمدائن لها سور عال.. والسور عليه حرس أشداء، ومدافع تطلق الموت والدمار!

نحن بانقسامنا وفُرقتنا نخسر أهم ما نملك.. نخسر شعبنا الذي نحكمه، ونخسر إيمانه بنا، وهو الذي لم يشك للحظة بوطنيتنا وحبنا لفلسطين مهما اختلفت مشاربنا وقناعاتنا وبرامجنا.. لكن شعبنا هذا بدأ يفكر الآن وبجدية أنه بحاجة إلى من يخرجه من حالة التمزق الذي يعيشه

على وقع الانقسام والتنافر.. إلى إطار وطني جامع يكون بلون الوطن الواحد، وبحلم واحد.. ويعزف على نوتة واحدة.. لا يفكر إلا بمصلحة شعبه، بعيدًا عن المصلحة الحزبية الضيقة.. إطار يُرجح كفة القبان لصالح الوطن والإنسان والقضية الوطنية، لديه واجب واضح: إزالة الاحتلال وإلى الأبد، وبعده لنختلف مَنْ مِنا كان على حق!

نشرت في القدس العربي، دنيا الوطن والعروبة – ٢٠٠٩ م

إنتاج فيلم درامي فلسطيني

"مغامرة" غير محسوبة أم "نقطة تحول"؟

هناك في الركن البعيد فرح وغناء.. عُرس وعريس وعروس.. وهنا في الزقاق حزن وبكاء على شهيد.. وفي البيت المجاور أم تدعو الخالق أن تُكَحَل عيناها بابنها السجين.. لعل الأقدار تجمعهما قبل الوداع الأخير.. وفي مكان غير بعيد، فرحة وانتظار لمولود جديد، وفي الجوار ضحكات ورقص وأهازيج لنجاح ابن القرية النجيب.. وأمه تكسر حاجز الصمت في القرية فرحًا بابنها، فتطلق للعنان الزغاريد.. وبنات القرية يتهامسن عن قصة حب وليد.. عن عشق نقي بريء جميل..

وهناك وفي صباح جمعة مباركة، تجمع الأهالي، كبارهم وصغارهم، هتفت الحناجر.. أعلنت الرفض وعدم الخضوع للمحتل.. استنكرت الحصار، ودَعَتْ إلى إزالة جدار الذل والعنصرية.. صاحت لا للفساد، لا للظلم.. وفي نفس المكان تخّضبت الأرض بالدماء الطاهرة.. تفرق الناس بعد هذه المنازلة على وقع غاز الدموع والضرب والاعتقال.. مصممين على العودة إلى نفس الساحة في الجمعة المقبلة..

هذا هو "الفلسطيني" مشاعر مختلطة، هو ككل الناس يفرح ويحزن.. يحب ويكره.. يعشق حتى الثمالة، ويرفض ويكره الغبن لآخر قطرة دم، يضحك من أعماق أعماقه.. ويبكي بصمت حين يواجه المصائب، يتصرف كالرجال حين يلزم ذلك.. وحنون بلا حدود حين يستوجب الحنان والعطف..

كل هذه المشاعر الإنسانية المختلطة وغيرها، هو ما دفعني إلى فكرة فيلم درامي فلسطيني، ومن بعدها إلى إنتاجه.. خاصة بعد أن أصبح الفلسطيني أينما كان، يوضع في قالب ضيق، لا يملك فيه إلا مشاعر من لون واحد.. أو على الأقل لا يحق له إلا أن يحزن ويكره ويبكي.. وقدره الوحيد أن يُعتقل ويُجرح ويستشهد ويُهدم بيته.. قدره الوحيد في هذه الدنيا أن يُقاوَمْ ويُطارد ويُعذب!!

وانعكاسًا لكل ذلك، أصبحتْ كل أفلامنا، الوثائقية منها أو الدرامية، لا تتحدث إلا عن هذا القالب وعن تبعاته.. لم تولد لنا سينما بالمعنى الصحيح.. تأخذ على عاتقها الحالة الخاصة للإنسان الفلسطيني بكل مشاعره الإنسانية المميزة.. بل صنع لنا أشقاؤنا وبالذات السوريون دراما تتحدث عنا بطريقتهم.. شاهدناها ولم نلتفت كثيرًا إنها تتحدث عنا.. وإن حدث أن بادر أحدنا إلى صناعة دراما فلسطينية، فهي في الغالب تعتمد على توفر دعم المؤسسات الدولية المانحة.. لتكن في المحصلة دراما على المقاس، وبلون تلك المؤسسة.. وقد تكون فرصة ذهبية للكثيرين، لِوَصْمنا بالتهمة الدائمة، وهي إننا نتحدث عن أنفسنا ولو بشكل درامي للحصول على المال!!

والآن وحين خرجت فكرة فيلم فلسطيني درامي، والذي يعود فضل الاقتناع بها إلى الكاتب الروائي والسينمائي سليم دبور، طرحتُ فكرتي وخميرة القصة عليه، وإذا به يُخرجها إلى النور؛ سيناريو وحوار ليس من السهل وصفه.. قلت له هذا ما أريده، أريدُ فيلمًا يُخرج الفلسطيني من القالب الأسود.. أريده يتحدث عني وعنك وعن الإنسان الفلسطيني.. أريده فيلمًا يجمع كل المشاعر الإنسانية.. أريده حبًا وعشقًا، مقاومة وصمودًا، صبرًا ونجاحًا، تعثرًا ووقوفًا، تألقًا وسحرًا، أريده ولادة جديدة لشيء مميز وجديد، اسمه دراما فلسطينية خاصة.. أريده بداية جديدة بدون انغلاق أو تقوقع.. أريد أن يشاهده نصف العرب، بل العرب كلهم، وغير العرب.. أريده بحق "نقطة تحول"..

نشـــرت في القـــدس العربـــي، دنيا الوطـــن والعروبة
وفي أكثر من ثلاثين صحيفة محلية ودولية – ٢٠٠٩ م